

## فيلم وثائقي يقتفي احلام طفلة ظلمها الواقع هل تذكرون نورهان... نجمة الزمن الجميل؟

كثيرون اليوم لا يعرفون الا اسمها، مع انها واحدة من اهم مطربات الاربعينات والخمسينات في لبنان والشرق العربي. ما حكاية هذه "الشركسية" التي غنت لفيلمون وهبي وحليم الرومي وسامي الصيداوي وكثيرين غيرهم؟ ولماذا طواها النسيان؟ المخرجة مي قاسم ارادت أن "تكتشف" جدتها التي اختارت مبكراً اعتزال الفن، وهي آخر الشهود الاحياء على تلك المرحلة الذهبية



نورهان.

يفتح فيلم "نورهان... حلم طفلة" (72 دقيقة) بكادر ثابت على غرفة نوم تتوسط جدارها صورة "سبينا" في إطار خشبي كبير لامرأة حسناء تذكرنا بتلك الصور التي تضعها جداتنا في بيوتهن عندما كن في عز صباهن. الى جانبي هذه الصورة الكبيرة، هناك صور اصغر من بينها واحدة لرجل بالطربوش. هذه الصور العابقة برائحة الماضي واشباحه والموسيقى السعيدة التي ترافق الكادر، يأتي ديكور الغرفة واثاثها ليزيدها حضوراً. إنه "الزمن الجميل" الذي يشيرنا به المذيع مروان ابونصرالدين، معلنا

ذلك الزمن، "كانت من اوائل المطربات اللواتي كن لهن محطات في بغداد والقاهرة، كما اشتركت في عدد من الافلام". تنتقل الكاميرا الى نورهان (او "خيرية" اسمها الحقيقي) وهي بـ"الروب" تقف قبالة المرأة وتمشط شعرها الابيض القصير. ربما قلة تتذكر هذه المطربة التي سطع نجمها بين عامي 1940 و1965، حين قررت اعتزال الفن الذي كان المجتمع يومها يحوطه بحكم اخلاقي قاس ورجعي. الغريب ان نورهان الذي يجمع اسمها بين نور الهدى واسمهان، قررت وضع هذا الماضي في صندوق مع صورته ووثائقه ولحظاته السعيدة والحزينة، واقفلت عليه عقوداً، قبل ان تكتشف حفيدتها مي تاريخ جدتها بالمصادفة، وتقرر انجاز فيلم وثائقي عنها. الشريط يركز على سيرة نورهان الشخصية أكثر من تركيزه على مسيرتها الغنائية والوجوه الفنية والموسيقية التي شكلت هذا الزمن الواعد. مع ذلك، فهو وثيقة ضرورية لفهم حقبة شهدت البواكير الاولى للتسجيل الموسيقي والاخراج السينمائي في لبنان ومصر والعالم العربي ككل. الشريط الذي يركز إلى الفيديو، والانيميشن، ومقاطع من افلام سينمائية شاركت فيها نورهان، والكثير من الصور الفوتوغرافية، يتنقل بين مختلف مراحل حياة نورهان منذ الطفولة، حين اصابتها "لوثة" الفن عندما اكتشفت "فونوغراف" في منزل صديقة والدتها، فسمعت للمرة الاولى اغنية ام كلثوم "الي حبك يا هناه"، وصولاً إلى دخولها الاذاعة اللبنانية من خلال رئيس قسم الموسيقى فيها الراحل حليم الرومي الذي انجز لها اغنية. لكن كلما ارادت العمل عليها، جاءها عرض للغناء في احدى العواصم العربية، حتى اسميا العمل بـ"الاغنية المطاطة" كما تقول لنا ضاحكة في الفيلم.



يمكن القول ان مسيرتها الشخصية كانت حاسمة في تقرير مصيرها الفني. كان والد نورهان علي جركس شركسيا، هرب من القوقاز خلال المجازر الروسية ضد شعبه، وامها تركية من الاناضول، خطفها العريس كما تقتضي التقاليد، واستقرا في دمشق. لكن نورهان تيمت طفلة. لذا، زوجها في الرابعة عشرة من عمرها من رجل "متزوج من العلم والكتاب ولا يفقه شيئاً من الدنيا والبيت والمرأة"، وقد قرأ لها في يوم زفافهما "فاوست... الرجل الذي باع روحه للشيطان" لغوته! كان واضحاً ان هذه العلاقة ستؤول الى حائط مسدود، حتى ان نورهان رمته مرة بصحن الفاصولياء حين رأته انه استرسل في "اللت والعجن". كان الفن عالمها، والسينما تجعلها تنسى الدنيا حالما تدخل صالة العرض وتندمج في الفيلم، و"انسى انني متزوجة". في الفيلم، ستحكي كيف سافرت مع زوجها الى القاهرة، وانجبت منه زياد والد مي، ثم بمحض الصدفة دخلت عالم السينما ككومبارس في فيلم لفريد الاطرش، قبل ان تسلك درب الفن من الباب العريض. يلفت المشاهد في الفيلم حس السخرية والذكاء والظرافة التي تتمتع بها نورهان. تحكي لحفيدتها كيف جن جنون زوجها حين شاهدها تقبل رجلاً في فيلمها الاول "الخير والشر" (1946). يومها قالت له ان القبله مجرد حيلة سينمائية، وليست حقيقية. لكنها تضيف لحفيدتها انها كانت قبله حقيقية وانها كذبت على زوجها لتنتهي المسألة! في كل الاحوال، ستفصل عنه لاحقاً، لترتبط بالمخرج محمد سلمان الذي تعرفت اليه في "الخير والشر". تقول في الفيلم انه كان "رجلاً طيباً ووسيماً وظريفاً يمر الوقت معه بسرعة"، لكن مشكلته انه كان يلعب القمار، وهي كان همها تأمين حياة كريمة لابنها الوحيد زياد، ما ادى الى الطلاق.

احيت نورهان حفلات في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد، قبل ان تعود الى بيروت وتدخل الاذاعة اللبنانية في بداية الخمسينات. غنت لعدد كبير من

### نقطة على السطر

#### أيتام الزمن الجميل

نسأل عن الكبار اليوم في الثقافة والابداع، نبحت عنهم فلا نجدهم. غابت قامات القرن العشرين، وساد صمت مريب، ولفنا فراغ اشبه بالعدم، فلم يعد لنا من ملاذ في هذه الصحراء الشاسعة الا واحات الحنين. لكن ليس بالحنين تزدهر الحضارات، وتشيّد النهضة! الواقع القاحل الذي نعيش، له طبعاً أكثر من سبب وتفسير. لا شك في ان بيروت والقاهرة وتونس وبغداد والجزائر والقدس، وغيرها من المدن والارياف والعواصم العربية تحتضن مواهب كبرى واصواتاً فريدة... لكن المواهب والاصوات لا تكفي. هناك شروط موضوعية وذاتية عدة تتضافر لاطلاق هذه المنارات وتكريسها.

هذا يحدث في ازمة النهوض والاحلام الكبرى والمشاريع القومية والوطنية ومراسل البناء وحالات الازدهار الفكري والاقتصادي والسياسي. ويتطلب مناخات خصبة، تبدأ من الفضاءات التي تجمع النخب والجمهور، ولا تنتهي بنى الانتاج والتوزيع من الاذاعة الى صناعة الثقافة عموماً.

اليوم شركات الانتاج التقليدية تركت مكانها لمنصات وبرامج الكترونية، في الزمن الرقمي والاقتراضي. في عصر مختلف بايقاعه ومرجعياته ومتطلباته. وهذه الآلة العملاقة هي التي تبني بكيسة زر، حول الكوكب، وتفرض الرواج، وتطبع الذوق وتكيف ملايين المتلقين تبعاً للنمط الاستهلاكي المهيمن. اما التجارب النوعية، عمقا واتقاناً وابتكاراً ونضجا وبلاغة، فيمكن لها ان تجد مكانها في الهامش فقط، وتبقى عنده ضمن دائرة صغرى من المتذوقين.

لم يعد هناك زعيم وطني، او نظام سياسي، أو تيار وقوى واحزاب، يمكنها ان تحمل فناناً الى الذروة وتجعله سفيرها ورافع رايتها. لم تعد مجتمعاتنا في زمن التشنج والخوف والتحرير قادرة على احتضان تلك المناخات الخصبة، فكراً وفناً، التي تفرز تجارب واسماء خالدة، وتضمن استمراريتها وتطورها. لم تعد الاذاعة هي التي تصنع النجوم، وتروج لهم، وتقدمهم الى الناس. ولا الاستوديوهات التي عرفناها منذ عشرينات القرن الماضي.

لو عادت أم كلثوم لما وجدت الشعراء والملحنين الكبار الذين يليقون بها، ولا نخب وطنية تحتضنها، ولا سمّية ربما، ولا زعيماً وطنياً يتبناها، ولا شركة اسطوانات تسجل وتطبع وتوزع اعمالها، ولا حتى المسرح الذي يمكن ان تغني فيه، مساء الخميس الاول من كل شهر. سيكون عليها ان تطلق اغنياتها على تطبيق "انغامي" او ما يعادله، وان تكتفي بصحافة سطحية تكتب عن "فضائحها"، الى أن يصطادها وكيل اجنبي يحتكر في اسطبله عشرات الاسماء والفرق، ويروح يبيعه على مزاجه، ويقولب فننا حسب طبيعة اسواقه.

في هذا الزمن المعوم، صرنا نرى فرقة روك لبنانية اغنياتها بالعربية، اصبح يدير انتاجها وكيل اجنبي من اوروا، تنتشر اعمالها على الانترنت، وتحقق اغنياتها اعلى نسبة رواج في... إسرائيل. وذلك، طبعاً، من حيث لا تدري ولا تقصد!

في هذا المناخ، لا نعود نستغرب عندما نرى اصواتاً ممتازة تكرر نفسها لاعادة تقديم اسمهان او عبد الحليم أو غيرهما من كبار العصر الذهبي. فيما تكتشف الفرق الجديدة التراث العريق وتعيد احياه. كل ذلك يخفف علينا قليلاً الاحساس باليتم والانسلاخ والافلاس!



مع امير البرق محمد عبدالكريم وصديقتها المغنية العراقية انطوانيت اسكندر.



من الفيلم ايضا.



من فيلم مي قاسم "نورهان حلم طفلة".



في صباحها.

مجموعة من الاغاني)، وصديقتها المغنية انطوانيت اسكندر. تظهر في الفيلم صورة فوتوغرافية تجمع الثلاثة وقد كتب في خلفيتها: "ها نحن الثلاثة الغلابين والمعذبين في هذا العالم، ليس لدينا سوى الموسيقى سلوى لقلوبنا المحطمة، فلا نحيا سوى لها ولا يبقى لدينا غيرها في الوحدة".

لكن لاحقا، ستهجر نورهان الفن بعدما تعبت من هذا الوسط ونظرة المجتمع اليه، لتفتتح صالون حلاقة في حي عرنوس في دمشق. اصبح الصالون قبلة للزبونات اللواتي اردن التفرج على نورهان على وجه الخصوص. هكذا، اقبلت فنانتنا صفحة الفن، لكنها ظلت على علاقة صداقة بالكثير

من نجومه. كان يمكن لهذه المرأة التي تبدو في تصالح تام مع الماضي في الفيلم، ان تصبح احدي ايقونات ذلك الزمن لو قررت الاستمرار في هذا الدرب، لكنها اختارت الانسحاب بعدما كانت احلامها اكبر من الواقع واجمل منه.

س. م

الملحنين، منهم محمد محسن وفيلمون وهبي وحليم الرومي وسامي الصيداوي وعبدالرحمن الخطيب ومحمد عبد الكريم وغيرهم. ومن بين اشهر اغنياتها، نذكر "بلد الجمال"، و"مالك ومالي"، و"من اول ما لقيته"، و"مين فلك حب" (تأليف عبد الجليل وهبي والحن فيلمون وهبي)، و"يا مرخصين دمعمكم" (الحن محمد محسن). محطات وتفاصيل كثيرة في الفيلم تستحق المشاهدة، خصوصا تلك التي ترتبط بعلاقتها مع مشاهير ذلك الزمن، مثل محمد عبد الوهاب الذي كان يعشق اللوبياء وكانت نورهان تطبخها له وتزوره في بحمدون خلال الصيف، فكان يضع

الصحن امامه ويقول لزوجته ولاولاده: انا ما عرفكمش. ما حدش يقرب علي". تتوقف مطولا عند عبد الوهاب الذي كان "يدعوها الى الغداء ويعد السلطة ويغني "الليالي" و"هلت ليالي القمر"! كذلك، هناك تلك العلاقة التي جمعتها بامير البرق محمد عبدالكريم (لحن لها

عن هذا المزيج بين الذاكرة الفردية والجماعية من خلال فيلم "نورهان... حلم طفلة"، تقول المخرجة مي قاسم (1975) لـ"الامن العام": "طلبت منها ان تحدثني عن تلك المرحلة، وكانت فعلا مترددة. تدريجا، انكسر الجليد، بل صارت هي التي تطلب الكاميرا وتبدأ بسرد القصص على مسامعي. لطالما احبت ان تكون مخرجة ايضا، اذ كان لديها حس السينما. وبطريقة من الطرق، ساعدتني على انجاز هذا الفيلم. ما اردته في الشريط هو ان اتحدث عن الشق الفردي، لا الجماعي، فالشخصي هو اكثر جانب يستطيع الناس التواصل معه في فن السينما. صورت 26 ساعة مقابلة معها، شملت حديثها عن كل من عاصرتهم منهم محمد عبد الوهاب، ومحمد عبدالكريم، ومحمد عبد المطلب، وتحية كاريوكا التي كانت من اعز اصداقائها، وبديعة مصابني، وآمال العريس، وفيلمون وهبي، وام كلثوم. فقد ربطتها بهم صداقة قبل اي شيء آخر. واستمرت تسرد لي قصتها حتى بعد اعتزالها الفن. لكنني كنت امام سؤال: ما الذي اريد سرده في الفيلم على وجه التحديد؟ لذا، قررت ان تكون هي وانا وعلاقتنا محور الفيلم، مع ان لدي الكثير من المواد الاخرى".

حين نسألها: اليس مستغربا ان لا تعرفي تاريخ جدتك من المحيط حتى

## مي قاسم: دريد لحام كشف هوية جدتي

لو اخفته عنك اكثر من عقدين؟ تجيب مي قاسم: "المحيط يعني ابي الذي هو ابنها الوحيد، وهو كان يحترم رغبتها في عدم التحدث عن هذا الامر. طبعاً، والدتي كانت تعرف، لكنها لم تحدثني عن ذلك ايضا. حين زرت جدتي في دمشق بعد تخرجي من الجامعة، قررت ان تعرفني إلى الفنان دريد لحام بنية ان اخضع لتدريب عنده. وحين وصلنا الى بيته، استقبلها بحفاوة بالغة، وشيئا فشيئا خلال الحديث اكتشفت ماضيها".

حين نسألها عن علاقة جدتها الاشكالية بالفن، فمن جهة هي تشعر ان الفن هو متنفسها الذي يشعرها بانها تعيش، ومن ناحية اخرى تمرر هذه النظرة الدونية إلى الفن، وتحديدا الغناء، تجيب قاسم: "هي تقصد المجتمع الذي يملك هذه النظرة، لا هي. وكامرأة كانت تربي طفلا بمفردها، اجبرت على اتخاذ قرارات كي تستطيع اعالته. ربما كان حلم نورهان اجمل من الحقيقة ومن الواقع".

في الفيلم نرى امرأة في تصالح تام مع الماضي، رغم انه كان يمكن ان تكون احدي اهم مطربات زمنها، فهل هي فعلا تعيش هذا السلام في حياتها؟ تجيب مي قاسم: "في رأيي، إنها شخصية قوية وفريدة من نوعها، لكن هذه القوة فيها تعود ايضا الى الحياة التي عاشتها، خصوصا طفولتها. فوالدها مات ولما تخطت الاربعين يوما، ثم والدتها حين كانت طفلة لا تزال في السابعة من عمرها. كيتيمة، كان يجب ان تكون قوية لتستمر في الحياة، لكن ايضا بما انها يتيمة لم تكن هناك قوانين وقواعد مفروضة عليها. لذا، استطاعت ان تعيش احلامها من دون ان يقف احد في وجهها. هي كانت اقوى من جدي، مع انها كانت تصغره بعشرين سنة. وقد ابتسمت لها الحياة، اذ استطاعت ان تحقق احلامها في التمثيل الذي بدأته ككومبارس بالمصادفة، وكانت فعلا محظوظة. واعتقد بانها عاشت القصص بالطريقة الفضلى التي يمكن عيشها، وربما توقفت عندما احسنت ان هذه هي نهاية الدرب، وانتقلت الى مجال آخر، فافتتحت صالونا في دمشق".

عن مواد الوثائقي وكيفية الوصول اليه، خصوصا وان ليس هناك اغنية واحدة لنورهان على الانترنت مثلا؟ اجابت: "هناك اغنيات لها على "ساوند كلاود" وموقع "سماعي". استعنت ايضا بكمال قصار صاحب مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية - AMAR، الى جانب الاذاعة السورية التي تتمتع بجودة في حفظ ارشيفها الغنائي، حيث اخذت 16 اغنية لنورهان. اما في الاذاعة اللبنانية، فلدينا خمسة تسجيلات فقط لها. ونورهان لديها تسجيلات كثيرة ايضا".